

ممشى الولد والكلب

مسرد حكائي



أهل الكردفاني

ممشى الولد والكلب

مسرد حكاىي _____

أمل فايز حسن

رقم الإيداع 2023/1536
الترقيم الدولي: 1861648693
الهيئة السعودية للملكية الفكرية:
رقم التسجيل: 23-12-1553973
07\04\2023

”عملية الكتابة هي تهديم في حد ذاتها”
~ فوكو~

مسارات فلسفية

ت: محمد ميلاد - ص 15

(0)

الإنسان كائن مُغامر؛ وأكبر مغامراته أن يستمر في الحياة

(1)

ولكن إلى أين؟ وهذه الأرض تحتي مستديرة العود الأبدي، وصبية الضباب يلعبون ويضحكون، وهم يمثلون مسرحيات ألفريد جاري: "أوبو أوبو أوبو".. والسحاب يلف النمل المجنح ويلاحق الحصى الملساء فوق كتب السحرة. "إن تكن عبثية، فلتكن حتى النهاية، حيث يسقط ظل اللا شيء أمام أعيننا الجافة".

يقول الولد الشقي وهو يجركلبه من ياقة القميص. تعال وادخل في لباسي السفلي لتعض الكرتين النرجسيتين.

لكن الكلب ينفذ ياقته وينبح بالفزع ويمشي قربه هادئاً منكس الرأس ولسانه يلحس الأسفلت الأزرق.

لم يتوقف صببية الضباب عن الظهور على جانبي الشارع الضيق وهم يرقصون الكرانكا الخضراء. ويصيح الكلب: "من علمكم رقصة الشياطين هذي" وعيناه تتسعان ولكنه لا يترك جرسانه على الأسفلت الأزرق.

(5)

"سينقطع الغناء لتعيش وحيداً" وتتموج بعدها كتل الظلام البنفسجية أمام بصري.

#سيقتلونك

هاشتا..

وهذه لغة جديدة على الجاموس البري. فيترك القطيع رعي العشب ويرفع راسه وخطمه إلى السماء متشمماً.

"هذا هو القديم"

"تماسك"

"لا تسقط"

وصبي ضباب يمثل في الكولوسيوم واضعاً قناعاً من الثلج القديم.
"إنها إشاعات.. إشاعات فقط.. مجرد إشاعات يا حبيبتي.. وروما.. ليس بها مترو أنفاق حتى الآن.. منذ جستن الأول وهم يتداولون أمرهم" .. ثم استبدلوا المترو بمدونة القانون ليعلنوا بداية نهايتهم.. بداية موتهم..

حينها يعود قطيع الجواميس البرية للرعي مرة أخرى. وتعبر بين أجسادهم الهزيلة ريح حارة من الجنوب.

إن كان عبثاً فليكن حتى الموت.. لأن حبك لم يكن مجرد أكذوبة إبريلية يا ذات الشعر الأحمر.. ويرى الكلب لهباً فوق قمة حصاة صغيرة ويرى انعكاس صورتني على لحائها الأصفر الأملس فيلتفت وينظر إلي. يظل يحدق في وجهي ويعود ليحدق في صورتني على الحصاة. يلحق لسانه بحركة دائرية محترفة ثم يجره على الأسفلت.
"كن بخير"

...

ويحكي الولد للكلب قصة رعب فيموء كالمقطط..

"يُدخلون الشاليمو داخل كرة العين ويمصون سائلها الذهبي".

يعوي الكلب ويتلوى على بطنه.

لو تزوجت من شابة صقلية، لها تاريخ عريبيد كالشهب، تعطيك حناناً وتعطي زنجياً جسدها لتبلغ كمال متعة الحياة. أليست خنفساء البحر تعبر بين الأصداق، وتمد ساقها المثيرة لتتحسس برودة مياه الشاطئ. ثم تقول: "وي وي".

يضم الكلب فخذيته وينحني للوراء. متلفتاً حوله حتى لا يراه أحد. فيراه كل الناس.
ويدوس حذاء الولد فطراً برياً فتفوح رائحة عفنة.
"مثل مراوح الورق عند الأميرات".. تتدلى غلالات حمراء من آبار النفط الصحراوية
العابرة على جسد الصقلية ذات الشعر الأحمر.
إنها تعطي قبلة لكل من يسأل.
"قبلة في الفم؟"
يلتفت الكلب ويسأل بدهشة.
"قبلة في الشفتين الحمراءوين"
ويرفع الولد قبعته ويخلخل شعره الفلّلي بأصابعه الصغيرة ثم يعيد القبعة إلى
رأسه.
"وما المانع؟"
"لا ولكن.."
ويبدو الكلب حائراً ويجر لسانه على الأسفلت..
هناك من يعيشون داخل الصفر. وداخل الصفر عالم من اللبن الأبيض
والجواميس السمينية والأعشاب الطويلة ذات النهايات الدبوسية الطرية. وحلوى
بالونات حمراء وصفراء وزرقاء. ينزع الولد سببية من لحيته متأماً ويعض جانب
لسانه فيصرخ ويبكي ويلوح بكفه الأيسر وكفه الأيمن يحيط بفكه من أسفل.
إنها أوساخ.. اوساخ.. يجمعونها في المساء لتجمعها سيارات النفايات من أمام
المنازل في الصباح. أو العكس.
"ولنسمه ممشي الولد والكلب"
ويحاول الكلب الضحك لكن تشريح خطمه لا يساعده فيكتفي بلحس التراب.
إنها غابة من ذكريات. ولها وظيفة ما. ربما تكثيف الوحشة. ولكن ما وظيفة
الوحشة؟ وجحر النمل المجنح يغرق في ماء الحمّام.. رائحة الصابون الغريبة تمرق
بسرعة بين الخنادق الإبرية المتشعبة. ومهرول العدو من مواجهة الموت.
عشر دقائق هنا وعشر دقائق هناك.. جنود هنا.. جنود هناك.. أن كانت عبثية
فلتكن حتى النهاية..

...

روكو.. الولد الأسود ذو الشعر الفلّلي الموزع على مساحات متباعدة فوق راسه يأكل الموزة بقشرها.

"إنني نادراً ما أتغوط"

وبالونات وجنتيه تنتفخ. ويلعق الكلب لسانه بحركة دائرية محترفة كعادته ويتخيل أن راسه خلف مؤخرة كلبة من النوع المهجن بنطفة كلب بوليبي.

"لماذا؟"

"لا أعرف.. ربما لكي تتملكني فأنا كلب والخضوع عادة الكلاب".

ثم يتابع بأنفه فراشة تدور عكس دوران لسانه. والولد لا يهتم بها بل يواصل أكل الموز بقشره.

"لتكون الأرض نظيفة".

لا تنخفض الطاقة أبداً إلا أثناء حزن عميق. والحزن وهم كسائر المشاعر. ولكنه حقيقي التأثير.

"لا تكن مخنثاً وتتابع الفراشات"

يخجل الكلب ويطأطأ رأسه مثل أولئك الذين يحبون الفلسفة.

الغابات هامة رغم موجات عابرة ومتفرقة من زقزقة العصافير. وثلاثة أسيرة ملقاة قرب بحيرة. الأسرة الخشبية للأسماك الطائرة وعروسين. والكرسي الوحيد لسيد الغابة. وهناك هاتف محمول واحد فقط لا صاحب له. وفي الجانب الغربي معسكر للمليشيات متمردة تشرب وتسكروتنام. لأن التمرد لم يعد يجدي. "لا شيء يجدي". يقول القائد المرابط تحت شجرة السرو ذات الزيت الطيار.

أنني أشتاق لصبية الضباب. أشتاق لعبثهم وضجيجهم. ولن يغير موتهم من ذلك شيئاً. فسينمون في خريف ما. أرسم إيموجي ضاحك بدمعة واحدة على الخد الأيسر. وتكبر البكتريا على الأرض وتصبح بأحجام ضخمة لأنها تعرضت للتميش. من قال أن التمرد لا يجدي؟

يطلق جندي رصاصة على الآخر فينتبه القائد لوهلة ثم يعود للنوم مرة أخرى.

تغيب الفراشة ويشعر الكلب بالأسى. وينهض الولد ليمشي فيتبعه الكلب ويقفز لينفض التراب العالق بمؤخرة الولد العارية.

"احترس"

يعود الكلب لجرلسانه على الأرض.

"إنها ليست عبثية يا روكو.. إنها ألم"

"فليكن"

ويشير إلى ثمرة جوافة صفراء في أعلى الشجرة

"انظر"

ينتاهما شعور بالرغبة في الضحك والشجا في نفس الوقت.

"ستكسر ذراعك"

"أصمت"

ويعتلي أغصان الشجرة

"من هو سيد الغابة؟"

"أنت؟!"

"بل القردة"

يسحق ثمرة الجوافة بيده الصغيرة

"دائماً القردة"

...

تزحف القردة فوق الكرسي، وتحاول أن تملأه بجسدها دون جدوى. مع ذلك ولهذا

السبب تحديداً؛ ستظل سيدة الغابة.

ويتنصت قطع الجواميس البرية أصوات الملاعق والشوك البرونزية وهي تتصادم

مع صحون الخزف الصيني الفارغة. وتتحرك لأعلى وأسفل للأمام والخلف. على

مائدة مستطيلة طويلة، أطول من مائدة العشاء الأخير، وتتخيل الجواميس الخبز

المقدس ينمو بين الأصابع المتقيحة.

"المرأة تملأ حياتك دون أن تكون معك.. إنها معجزة بيولوجية.."

"عجباً أيها القائد"

يطلق القائد طلقتين أعلى رأسه وتفر الطيور من شجرة الزينة، فتسقط هدايا عيد

الميلاد. ويسمع الكلب صوت الطلقة فينصب أذنيه ويئن لوهلة والولد منشغل

بإخراج الدود من ثمرة الجوافة.

"سأخلع قبعتي فالجوحار".

ينهض الكلب قافزاً فيرفع الولد راسه عن الجوافة:

"إنهم صبية الضباب!!!".

يبقى القائد وحيداً وقد قُتِلَ جميع رجاله، لقد سكروا وقتلوا بعضهم بعضاً فجمع
قناني الخمر ودفنها في الأرض وبني فوقها سقيفة من بقايا شجرة السرو الوحيدة في
الغابة.

"سأحافظ على كنزي الصغير"

وقهقه مغتبطاً وهو يغلم، فتطاير اللبن الأبيض على كرشه المشعرة وغطّ في نوم
عميق، ليرى أمه تقف وعلى يدها سوط من جلد الجاموس البري وهي تلومه
بنظرات حزينة.

"سأصطاد السمك بديدان الطمي"

غير أن أمه تظل تحقد فيه بقسوة.

ويتمنى لو أنه كان يحلم.

"هل جربت الدخان؟"

يغمغم الولد ويرد الكلب نافياً.

"ولا انا جربت الدخان"

ثم ينهض ويمهول ليتبعه الكلب وهو يلحق لسانه بحركة دائرية ثم يجره على الأتربة
فتلتصق به بقايا أوراق الأشجار.

وعلى البحيرة تتوزع ملابس العروس والعريس الداخلية فوق السريرين. ويبدو أن
الإنسان يصطنع معاركه الخاسرة باستمرار لكي يشعر بالحياة ثم يندم عليها. فعلى
ملاءة السرير ثلاث وردات جافة، حمراء وصفراء ووردية. وخاتمان من ذهب، على
أحدهما أماسة صغيرة جداً. شفافة ومعادية للفوضى. فليكن عبثاً.

لقد وجدهما القائد وقد شنقا نفسيهما فوق شجرة السرو فدفنهما بعيداً وظل
يتذكر فخذي العروس السمراء اللامعة ولكنه يخشى وجه أمه أكثر.. لذلك شرب
كثيراً تلك الليلة وشاركه القمر المستدير بكأسين، أو ثلاث من غلالات الضوء
الأبيض المزرق. كان كل شيء يعصف بالقلب بالرحمة.

"سنبحث عن أكل النمل ذو الأنف الطويل"

ذلك أن الأشقياء لا ينقرضون بسرعة. وتزرع الجدران صمتها وتصرخ عارية. جدران من الهواء والنار. كل شيء يغلي على مرجل الزمن. وسيصبح الولد عجوزاً يوماً ما، والكلب يموت عما قريب إن لم يكن الكون كرتونياً بأكمله، فالمسألة كلها إذاً عبث كوهم الوسواس القهري.

إن الأشياء مُعطى وهدف. ويمرغ أكل النمل خرطومه في الأتربة ليمتص نمل الغابة المجنح. وكذلك يحشره في بقايا ثمرة الجوافة فيشم رائحة أظافر الولد الملوثة فيعطس وابتعد بسرعة.

"تقدست أيتها الأفخاذ اللامعة"

ويرسم شارة غريبة فوق جبهته ثم يجرع من الزجاجاة ويضرب وترخي أطرافه وينام. كل ذلك دفعة واحدة لأن أشهر السنة وأسابيع الأشهر وأيام الأسابيع وساعات الأيام تبددت كالعدالة. وحين يتدحرج ظرف الرصاصة النحاسي الفارغ فوق الحصى وتلتهب ذروة الحصاة، يحدق الكلب في وجهي وفي صورتني على لحاء الحصاة السميكة الأملس مرات ومرات بدهشة.

"كن بخير"

ويترنج ضوء العين الزجاجية، ينسحق الطين تحت الحذاء العسكري. وتحت ظل القمر. تهجم سحابات على بعضها وتلتحم في معركة ينتصر فيها الكل ويقفز صرصار الليل مختبئاً داخل ثلم جذع التاريخ. أنفاس محبوسة وأعين حزينة ومتوجسة.

"من هناك؟"

"سأطلق النار"

ويخرج هيكل شاب نحيل، رافعاً يديه.

"لا أملك سلاحاً"

وعلى حافة سفح الجبل العالي، جلس الكلب والولد يراقبان النجوم وهما لا يعلمان شيئاً عما يدور أسفلهما على بعد مئات الأمتار.

"أنا جندي"

"تابع لأي مليشيا؟"

"وهل في أفريقيا من يحفظ اسم المليشيا التي يتبعها يا سيدي القائد"

"حسنٌ.. ومن كان عدوكم؟"

"لا أعرف.. لقد أجبروني على حمل السلاح"..

"أنت تكذب"

"بل أقول الحقيقة لا أملك ما أخشى عليه.. لقد قُتل جميع أفراد أسرتي"

يتسرب بين الرجلين حب خفي، وحزن خفي، وتوجس خفي، ومستقبل خفي. ويمتطي الخوف ظهر يعسوب مقدس تنحلُّ روحه الشفافة على كون أحدب الأنفاس. عشوائية هي حياة اليعاسيب التعيسة. وتقول الأسطورة أن قصة حب دامية بين يعسوب وفراشة أفضت إلى أن حرّم اليعسوب على نفسه افتراس الفراشات. انتحرت الفراشة على لهب الحصى الصفراء حين تأكدت بأن سرعة حبيها لا تسمح لهما بالوصال. وقالت أساطير أخرى بأن الفراشة انتحرت لأن اليعسوب أحب الحية، لذلك تراه يتبع الثعابين والأفاعي في كل مكان. ولكن اليعسوب بريء من كل تلك الإشاعات. كان مجرد حشرة بائسة. لا أكثر ولا أقل. وبما أنه كذلك فقد نال قداسة التعساء؛ كعازف كمان بلا جوقة.

ويتسرب ضوء برتقالي من النافذة مهشمة الزجاج مرتمياً على طاولة بها عشرات من علب مساحيق التجميل. ومرآة تعكس أعين اليعسوب الكبيرة ورأس الولد والكلب.

لا تسأليني لماذا. إنك تبحثين عن سبب؛ اليس كذلك؟ وهذا أكثر صعوبة من الصمت. فلننه كل هذه الفوضى. فليس بالحب وحده يحيا الإنسان. ولنصعد إلى شجرة السرو ونشلق أنفسنا يا حبيبتي. إنني مستعد لأن أفعلها وحدي. وهنا حيث تحفنا الغابات فإننا سنُنسى كحزن قديم.

"سأمسح المساحيق عن وجهي أولاً لأكون صادقة مع الموت كما كنت صادقة مع الحياة والحب".

"دعيني أغسل قدميك الجميلتين قبل ذلك كما فعل المسيح مع تلاميذه فالفرق بين الواقع والخيال هو الجهل".

"فلنتضرع إذاً"

"من تحبينه عليه أن يكتفي بعبادتك".

وتتبعثر القمص الصغيرة الملونة في ريح الشمال كجسد الإله بان كو.

أولئك الذين يتوصلون إلى وحدة الوجود، لا يحسداهم أحد.
ويمد الولد يده المرتعشة فيمسك بأحمر شفاه ويتأمله، يشمه ثم يعيده إلى مكانه.
- كانت تعيش امرأة في هذا الكوخ المهجور.
يلعق الكلب لسانه بالحركة الدائرية: تضع مساحيق كثيرة!!!..
- ليس بالضرورة أن تستعملها كلها.. يحب الإنسان امتلاك خيارات كثيرة في حياته..
- لماذا؟

رفع الولد بصره ورأى صورته والكلب على المرأة:
- ربما ليشعر بأنه حر.

ثم غادرا الكوخ ليبحثا عن آخر صببية الضباب.
وليل الصيف الحار يرضع من ثدي شمس غائبة. مثل شاعر الحب. فهذه المنمنمات
تلتصق بصخرة سوداء تلطمها امواج المحيط بعنف فلا تتزلق عنها. تلمع الصخرة
كلما غسلها ملح الماء، تعكس بلورات الملح ضوء الصحو الكسول. ويلف ساحر
سمكة بخيوط النحاس. ويتلوا تعاويذ الشيطانية. فالإنسان إما هوائي أو مائي أو
ترابي أو ناربي. وتدور المروحة فوق رأسه ببطء فينطلق دخان البخور اقصاً وحاملاً
الكائنات الروحية على ظهره. "لكن.. لا شيء يحدث يا امرأة الإنسان" فهنا حيث
تحط النبوة -ويشير إلى قلبه- ينمحي الخير والشر، لأن الرجل يترك أباه وأمه ليلتصق
بامرأته. ويسمي ذلك زواجاً. ويرى ذلك حسن. فتدحرج ثمرة الجوافة المحشوة
بالديدان تحت أقدامهما العارية.

"سأصطاد السمك بديدان الطمي". ويتأملها البربريان بتعجب. وخلف الأكمة
يختبئ الكلب الشقي الذي سيموت قريباً كقربان للعبث.
تحمّر جمرة الطُّباق.

"أين وجدتها؟"

"جندي ميت"

ينهض القائد ويحفر الأرض ليخرج زجاجة خمر.
"هاك إذا"

ففي عالم الأرواح لا شيء بلا مقابل.

"هناك إذا مسرحية أخرى تكتب هناك".

وتمثلها فرقة إسخيلوس من صبية الضباب المقنعين. حيث كانت المرأة ترعى الأبقار في ذلك الكون المغاير. لذلك كان الشباب يخشون الزواج من راعية. وينحرف الممشى نحو قرية الألف حانة. حيث يقطن كل السكان داخل حاناتهم. وتخلو الطرقات من المارة. أما في المساء فتتحرك عربات الحمير محملة ببراميل الخمر والنبيذ لتتوزع على القرى المجاورة تقودها فتيات صغيرات بدينات من كثرة أكل لحم الخنزير وعلى رؤوسهن بواريك الشعر الأحمر ليقلدن الصقلية. وتابعهن الولد والكلب بنظرات خالية من المعنى. وأدركا أن المغامرة الإنسانية تنتهي عند الخمر والنساء، فلهث الكلب ولعق لسانه بالحركة الدائرية المحترفة، أما الولد فقد رفع قدمه اليسرى وتبول على جدران معبد مهجور. ثم غادرا بأسرع ما يكون، لترتفع إلى السماء فقاعات الصابون، ورائحته المثيرة للغثيان حين تمتزج برائحة التراب ورائحة الشمس الصيفية. ويمتد الممشى الرملي وعلى جانبيه أكوام من نفايات الحرب: الدبابات ذات الأنف المكسور، والمدرعات الضاحكة، والخوذ المتبولة، وحديد ينبت كعشبة الشيطان في كل مكان. وتحت ركام الحديد يحفر النمل المجنح أخادیده العميقة فتتكوم مخاريط التراب كأهرامات البشر القدماء. وفي الداخل يتناقلون أخباراً لا قيمة لها سوى البحث عن الطعام. متجنبين الخروج إلى السماء حين تمطر نترات الأمونيا.

"أنظر"

ويشير الولد إلى ورقة كبيرة. ويقفز الكلب ليثبتها بمقدمتيه.

"هل ترى الصور؟"

ويمضيان يوماً سعيداً في مشاهدة الصور على الصحيفة الصفراء.

"يصنع البشر أشياء عجيبة"

يقول أحدهما. وينهر الآخر. ويتشكل مثلث من الطيور فوق راسيهما عابراً بسرعة دون أن يرياه.

يرفع صبية الضباب أذرعهم ويوسعون ما بين أقدامهم ويُرعشون أكفهم ويقفزون على ذلك الوضع يمينا ويسارا، ثم يدورون حول أنفسهم وتصيح جدران الهواء "كرانكا.. كرانكا أوب زيلي.. كرانكا أوب زيلي.. وتضحك الفتاة الصقلية ذات الشعر الأحمر وهي تمسك بطنها لتحجز إنسياب دمائها الزرقاء من ثقب السُرّة. وما

يمكن أن يطلق عليه أيض الأحاسيس بلا تردد، فإن كانت عبثية فلتكن كذلك،
لتنبعث عفونة الإنوجاد القسري من كل مسامات بين الخلايا.

"تعبت وتعب لساني"

لكنه يواصل طاعة طبيعته، فيلحق الأرض بمساميرها وحديدها وأظرف الطلقات
النحاسية الفارغة ونترات الأمونيا. فتلسعه ويدور حول نفسه كالمجنون.

"هو.. توقف.."

وتستعر الحركة الأولى من سيمفونية شهرزاد. وتنتفخ أوداج النافخين على الأبواق.
ويسير كورساكوف داخل نهر نيفا حتى يبلغ الماء كتفيه ثم يختفي رأسه تحت النهر
تماماً. يرقص الشرق الأقصى بالأوسط وبموت كلب إفريقي فوق لغم. وفي الغرب
يجلس الرجل ذو القبعة المرتفعة والشارب المعقوف والابتسامة الصفراء ورسغ يده
اليمنى فوق ركبته اليسرى المعقوفة فوق الركبة اليمنى والغليون على كف يده
اليسرى.

"ستموتون"

تبرق عيناه.

ويختنق الكلب من ربطة عنقه فيحاول نزعها بلا أمل في النجاة.

ويهرول الجندي والقائد تحت ظلال الأشجار حاملين قناني الخمر، وهما يأملان أن
يفلتا من الموت وأن يتزوجا من ذوات البواريك الحمراء ويقتنيا جواميس برية
وينجبا ولداً ليرعى مع كلبه أحلاماً ماتت في صيف ما.

...

هناك صيف في كل مكان، داخل الأحذية وبين أسنان المشط، وتحت الإبطين، وفي
غمامة الذاكرة، وله رائحة نمل محترق. ليس النمل المجنح فقط، بل حتى النمل
الذي يتعشى تحت الجلد. أو ذلك المتخفي داخل الأرواح المتملمة. ويحاول الكلب
طرده من لسانه الطويل، وهو يعود إلى الخلف، لكي لا يتبع سيده الصغير. والسيد
الصغير لم يعرف بعد معاني الارتباط بين الموت والقُبلة. لذلك فالمسير طويل، إذ
يطلق الجندي الأسير النار على القائد، في وسط جبهته تماماً، غير أن القائد لا
يموت، بل يعض قضيب الأسير حتى يقطعه فيموت كلاهما ببطء كدوران المجرات.
يصبح الكون فارغاً منهما، ومن العروسين، ومن اليعاسيب المراهقة، وثمررة

الجوافة ذات الديدان، والحب والفرح، وتغمره كأبة سيارة عطبت بسائقها وسط الطريق الخلوي، لتظل ما تحت الرمل من عطايات عطشى شاحبة. إنه روتين الحياة الباهظ، والسخيف أكثر من رجل يتسول قلب امرأة.

"ليس كل العالم روكو"

ويبدأ الكلب في التحول لبشري. غير أن الولد لا يدرك ذلك. ويحاول الكلب التخلص من بشرية داهمت كينونته على حين غرة.

"بل كل العالم روكو"

ولكن هيهات.

ففي وادي البكاء، تنشق الأرض عن أخدود الحقد من حروف اللغة، وتلك ميزة بشرية مُحترقة.

"فليكن.. ليس كل العالم روكو"

فيردد الولد:

"ليس كل العالم روكو"

وتنقبض أذنا الكلب. مقررًا مفارقة صاحبه من طريق المجهول. ولا يلاحظ الولد اختفاء الكلب إلا في مساء يحبل الوحشة في أعماق الجبال. إن القماش الأبيض يتمزق ثم تنسل خيوط نسيجه شيئاً فشيئاً ليخسر الحكمة. وهكذا يقبع الولد وحيداً فوق التل، وعيناه على امتداد الممشى الأزلي السرمدي.

"إنك لم تفكر حتى في أن تطلق عليّ اسماً يا روكو"

ويستمر صمت حيرته مستلقياً على شفق الغروب.

كانت كتل السواد تنتشر، الأعشاب والتلال والأشواك والفطر العفن وأسرة العاشقين والقرادة فوق كرسياها، وجثة القائد والجندي الأسير، والصخور العابرة وأشجار الصبار الشوكية، ورماد شجرة السرو، وكل الغطاء النباتي، وصبية الضباب، وقباب الأضرحة فوق السماء، والكتاب الأسود، ودم الشيطان وصوت الطيور الآيبة إلى أعشاشها لتغفوا تحت أجنحتها.

"سأطلق عليك اسماً".

"ولكن ماذا؟"

"إنك لن تعود على أي حال"

مزعجة جداً، أصوات الملاعق والشوك وهي تصطدم ببعضها وتنقر على أطباق الخزف الصيني. "يجب أن تكونوا جادين أكثر من ذلك". وينظر الكهل إلى الولد: "ونحن نأكل الآن؟ هل تعتقد أن هذا هزل؟" ويصمت الجميع لوهلة، وهي وهلة كافية جداً لمناورة سريعة. وتهتاج الجماهير، هكذا هم دائماً ينتظرون الضربة القاضية وكأنما يوجهونها بأيديهم. ويستغرق العشب المحترق شساعة البراري المأزومة باليأس، وتهرول الجياد الحرة مبتعدة قدر المستطاع عن دائرة الحضور الضيقة. لقد غادرت الجواميس البرية، وسقطت أجنحة النمل، ونمت الرصاصات في سهول النسيان. "هذا هو تاريخي". تاريخ أول ارتشاف للأصابع بالأصابع. تاريخ أول نظرة حب، وأول قبلة، وأول انكسار أمام الحقيقة. هنا؛ حيث يبدأ الإنسان في النمو بالحزن.

"وداعاً"

وداعاً لذلك الولد

ومرحبا بعربات الحمير وهي تحمل براميل الخمر البلدي، منذ أن تعلم الإنسان تقطير الفواكه بعد تخمير عصيرها. ولم يكن ذلك بالبعيد. تقول كاميليا بأنها لا تفكر في شيء. وتقسم على ذلك. ثم توزع الحيرة مع الكؤوس على زبائنها. "لا أحد لا يفكر في شيء". كيف يكون ذلك؟ فيلتقي بالخائن. يراه من بعيد وهو يقود رتلاً من الجراء القبيحة مثله، فيقف ويتأمله بصمت. تضاء مصابيح الدم في العروق لكي تتلقي وترسل بريدها الملوث، لكي تحدث ذلك التنبيه إلى تشعبات من مفترقات الدروب. لكي توتر الحكومات العالمية، لكي تشتعل الحروب، لكي يموت الكلاب وأشباه الكلاب، ويجتمع المدونون لصياغة مسارات أخرى للحقيقة الجديدة، لكي تكون تاريخاً جديداً. فتنبت الأقحوانات الحمراء من جديد، ومعها السوسن الأصفر والبنفسج وعباد الشمس وكافة أنواع المخدرات. وتمتد أصابعها لتقطف واحدة. تشمها وتغمض عينها كأول كذبات المراهقات. ويصدقها هو كأول حماقات المراهقين. وينبح الخائن من بعيد "ليس للورود رحيق". وتلتفت زوجته الكلبة ناحية الحبيبين تاركة جرواً يعبث تحت أذنائها القبيحة. تلهث ثم تتبع الخائن بصمت.

ينظر روكو إلى الفتاة ويرى ممشئاً جديداً يخرج من شفتيها ساقطاً تحت قدميها
عابراً الجحيم. تمتد يده وتمسك بفكها ورقبتها. يسمرها ويأكل نهدتها. ثم يمزق
تنورتها القصيرة مُفسحاً من القنوط بعض الأمل. "كيف لا تفكر أمك؟ هذا محال؟
لا أحد لا يفكر؟". يتركها مقرفة على الأرض وهي تضم فخذيها بذراعيها وهي تبكي
على خيط دم أزرق يحلق فوق السماء. ويرفع الخائن قدمه اليمنى ويتبول على
شجرة شاحبة ليضع علامة على نطاق معيشته البائسة. كل شيء له علامة حاسمة
تُقسم لمصلحته دائماً. يحدقان في بعضهما بصمت:

" رأيت كل شيء "

" ليس كل العالم روكو.. أليس كذلك؟ "

ثم يمضي كل واحد منهما في طريقه.

...

يا أرقاء الحياة..

هلموا..

فهنا تحت اقدام أغسطس

مات القرد مات..

كان يرقص..

والمارة يرمون النقود..

ويضحكون..

ثم

يغادرون..

كان يصبح:

هلموا يا أحفاد قيصر..

ويرتبي ممثلاً دور الميت فتضحك الجماهير.

ويلخص القرد معيار الحضارات الأوحدهممس للولد. وينظر الولد للاحتفال بروما

على الأرض الإفريقية. حيث يقف البيض ويتأملون السود بمرح.

إن حضارة البشر تقبع بين المطبخ والمرحاض.

ويشتري البيض مناديل الورق بكثرة، لأن السود والمسلمين تأخروا جداً وهم يبحثون عن الماء من أجل الطهارة.

يقفز القرد فوق كتف الولد، ويحاول الولد أن يتحمل ثقل عضلاته القوية. وطعنات شعره الرمادي. كان السيئ دائماً سبباً للإيجابي. ويبدو أن الكلب الخائن قد أصيب بالغيرة فصاح:

- الحتمية البيولوجية ستنتصر في كل الأحوال أيها القرد المتحذلق.

لكن القرد لا يأبه ويقول:

- توقف عن البكاء..

وعلى مشارف الأدغال، تهرب الجواميس البرية، ومعها كل العواشب، وقليل من المفترسات. وتغلق الجسور الترابية، وتنتشر المدرعات العسكرية.

تحطم الحيوانات الأسيرة، ومهشمون الكرسي، ويقتلون القردة.. وتجلس قرادة أخرى فوق الكرسي وتبدأ في عصرنة الغابة، بتجريفها أسرع من تجريف الطبيعة لها. وتتعلم الجواميس البرية السودوكو لتقضي فترة نهاية خدمتها في اللعب. يلقي الولد بالشوكة والسكين، ويغادر مائدة الطعام بغضب. إنه مناور بارع، فعندما يرغب الإنسان في البحث عن حرته، سيفعل ذلك، غير أن كل النهايات التاريخية كانت دائماً رفع الراية البيضاء بعد أن نرى النقطة الحمراء في خرائط الجي بي إس على الهاتف المحمول. ويرفع العمال على أكتافهم الأحمال الثقيلة، الحجارة وجوات الإسمنت وال فول والسمسم، والثلاجات والبوتاجازات وحقائب السفر، وكل الأكاذيب التي تحيط بالرغبة في الانعتاق والانفلات دون جدوى. وإذا كانت عبثية.. فلتكن كذلك. وليكن كل سفر الخروج خروجاً للعالم. تمرداً لم يكن بالإمكان تجنبه، لأنه هكذا يقول التاريخ: هو ذا يأمركم أن تعلّموا أذانكم بوسم واحد، لأطفالكم وكباركم ونسائكم ورجالكم وحيواناتكم، وكل حي يتنفس. أما الجماد مما لا نفس فيه، فاحرقوه، إلا القليل من الطعام والشراب. كذلك يأمركم، وكذلك تخرجون من بين الأخاديد على نهر نيفا، ولا تأكلوا ولا تشربوا قبل صباح كامل.

ورفعوا كل شيء على ظهورهم، وهم يتبعون سحب الرب، وقلوبهم ترتجف مثل قلوب الحمام. وعلى الطرف الآخر من النهر، جمعت الملائكة أجنحتها وجثت تترقب وصول الولد والقرد.

كان يدخن بكثرة.. وظلوا يفتشون عن مكان لدفنه لساعات طويلة، حتى وجدوا حيزاً في مصنع الإسمنت. وتوافد العمال حول جثته، وقبروه وأعينهم تضحك. أما السيد المدير فكان يجتمع مع مجلس الإدارة ليعرض السياسات الجديدة. وخاصة مطالبة الحكومة بضمانات بنكية حقيقية.

"إنهم لصوص"

"مجموعة لصوص"

تحولت كل المصانع إلى مقابر. وبعضها إلى مدارس كونغفو. وفي كل الأحوال فإن الأم لا زالت تصر على أنه الأب البيولوجي وليس القرد. واللاعب الرئيسي في تحديد مصير الثقوب السوداء في خرقة المشاعر البالية.

"لا تكرهه هكذا"

ولكنه ظل يقبع كحاشية سفلية؛ متعلقة وغير متصلة.

"لقد كبرت الآن وصرت شاباً وأصبح عليك أن تغادر ممشى الغابة الضيق.. إن طاقة الإنسان تتبدد كالعطر".

وجه الأم كان جميلاً، شفاتها مشققة ولسانها محتشد بالدمامل، وداخل محجرها الأيسر كرة حديدية سوداء. وتخيّلها والقرد يضغط على صدرها ويضرب فرجها الجاف بحراب النحاس النهاري. يدها كيد الجزار، وانفه كأنف الكاهن، وأذناه كأذني الجار المحتال، وانحناء ظهره الصغيرة تؤكد وجود جينات من خياط القرية المجاورة أما عقله فعقلية المدير. كلهم كأنهم هو ما عدا الأب الموثق بأوراق الحكومة. وهذا هو الموضع الطبيعي للحقيقة في هذا العالم.

اهيل على وجهه التراب، ولم يشعر الولد بالأسى. ولكنه وفي طريق عودته يلتقي بابنة كاميليا التي تحمل سكيناً وتصيح:

- أنا حامل.

إن العدوى تنتقل بكل تلامس. الفيروسات والبكتريا والحيوانات المنوية، والرغبة. كل الأمراض والخطابات الروحانية. وكذلك الضحك الذي انتاب العمال وهم حول الجثة.

"زوج عشيقة المدير العام"

كانت أعينهم قبلها هي فقط التي تضحك.. لكن الأشياء تتغير حتى الجمادات مثل النقود. تزيد او تنقص، ولكنها تتغير، ثم تتبدد. والعصفور على غصن الشجرة يراقب الدفن. يزقزق بدون شغف بل كأداء واجب للعزاء.

وتنتفخ البطن بالغازات، الجزر تنعزل بكنوز القراصنة الذين قضوا. كانت هكذا تُوَزَع أموال الضرائب على الفاسدين. العطاءات الحكومية التي يعدون عروضها ويفضون مظاريفها ويرفضون بعضها ويقبلون بعضها. وتتطاير الملايين على عودة موضة السبعينات حيث فتحت المومس الطريق إلى أحلام البؤساء. ودقت طبول القبائل القديمة لتتبدد حاملة ما تعتقده كنزاً من الثروات الثقافية. وتبدأ رحلة البحث عن وظيفة، وعن نماذج الأسئلة واجوبتها النموذجية. وانغطاس الحزن في قعر الأمعاء. والفرع في الوجوه المكفهرة الغاضبة. والليالي التي لا تفارق نفسها، محمية بالتسلية المزيفة وأصباغ التجميل؛ من برايمر وفاونديشان وكونسيلير وبلاشر وهايلايتروبرونز وارتكازات اللاشيئية في سجع مارتن هايديجر عند الموائد الزجاجية للمطاعم المحجوزة مسبقاً، وفرو الثعالب خلف الموت بإرادة حرة.

والتوأمان تابعا دفن جثة من قتلاه، تابعا بدقة دفنه. لقد سار كل شيء على ما يرام. ولكن من يأبه لتربصهما عند الزاوية المظلمة وانقضاضهما عليه بمناديل الغاز. برزت عروقه البنية على رقبتة ووجه وباقي اجزاء جسده كأنما كانت تحاول أن تنجوا بنفسها. وتدل لسانه المزرق على الجانب الأيسر ساخراً من ممشى الغابة. هنا، حيث تبدو وكأن التراجيديا تبدأ اليوم وليس من عصر اليونان. وحيث الشر ليس شراً البتة.

فتشا جيوبه وأخرجها مفتاحاً من فتحة شرجه ثم غادرا والرائحة العفنة تتبعهما حتى أن الكلبين البوليسيين امتنعا عن ملاحقتها.

"ماذا يأكل هذا الكلب؟"

"شيئاً تعافه الكلاب"

وكانت كرة العين الحديدية لا زالت في علبة الزيت. وهي تحاول مسح شفيتها المشققتين بأحمر شفاه، أو فلنقل بلون بنفسجي، وتنتظر عودته المشمزة. وأسدل الليل أستاره ببطء على كوخ الغابة. ونام جميع الأعداء وهم يحملون باصطياذ بعضهم في صباح الغد حتى الغزلان التي تدعي البراءة. "إن الإنسان يصنع ماهيته"، يقول سارتر بتفاؤل يحسد عليه. ويسند الولد ذراعيه على سياج الجسر الحديدي متأملاً الزيت الأسود والقمر يهتز مقلباً فيه. يفكر في الطفل القادم، والقرد على كتفه يبحث عن قملة يأكلها. "السيدة كاميليا" .. يقولها بكامل أناقته وهو يحمل باقة ورد متنوعة الألوان. وتنظر كاميليا عبر النافذة إلى خارج الحانة مُنحِيّة باقة الورد جانباً وتقول: - ليس ابنك.. أن ممشى الغابة ضيق ولكنه يتسع لجميع التأمّلات. ويحاول النظر إلى عينيها بلا أمل، فيغادر.

إنها اللعبة البرجوازية القديمة التي لم يستطع أن يجارها أي حيوان له لغة. والقمر ينقلي داخل صفحة النهر، يهتز وينقسم إلى قطع زبد متموجة ومتوازية. وتلوح الأسماك من الأعماق للسماء وهي تبكي وتبتلع بعضها أيضاً، إذ ليس هناك تناقض البتة عندما نقرأ نقوش الكهوف، والمسلات، والأهرام والمعابد وغير ذلك. لا تناقض إذ كل الأشياء تجثوا داخل مطاميرها قرب بعضها البعض. أحفاد ديدان الجوافة يلعبون في بطن السمك. والراحة الصغيرة تصبح قبضة قاسية. فليس للنيازك أن تخترق الغلاف الجوي إلا بعملية انتحارية متهورة. هكذا يتحدثون عن الصُدف، والحياة لا تنحاز لرأي ضد رأي بل تحتفظ بحيادها الأزلي.

"الغابة غريبة هذا اليوم"

يقول القرد فيرد عليه:

"يأكلها المنطق"

"عليك أن تجر لسانك على الأسفلت".

ويرتاب القرد، لكنه يفعل ذلك على مضض. فيضحك الكلب من بعيد. والدودة تصدر البيان الأول وتطالب بالعقلانية. وتقول وهي تحك أنفها:

- الناس يتحدثون كثيراً لأن الأمور ليست واضحة بالنسبة لهم. أما الحيوانات والحشرات فلا..

ويمضي الولد قرب الكرسي، يصطاد رائحة اللحاءات الخشبية، والطين، وأوراق القنب الجافة.

- لكن يا صديقي: ماذا يفعل العقل وحده.

ويقفز القرد من شجرة لأخرى دون انتظار إجابة.

- عليك أن تلحس الأرض كما كان يفعل كلي الخائن.

- كان يتملقك.. أما أنا فلا.. عليك أن تتقبلني كما أنا لأتقبلك كما أنت..

ويحيطُ الطفلُ بذراعيه. ليمنع عنه البعوض المنتشر في الغابة. مع ذلك يظل الرضيع صامتاً، وهو يتأمل مسرحية في السماء.

تتلبد الغيوم وتضحك وتقهقه وتبكي. تنسحب جماهير الطيور من ساحة المعركة.

وتختبي اليعاسيب تحت أوراق الشجر، وتحبو الدودة لتهبط من ساق الكرسي.

وتهتف الديدان من خلف الكواليس. لا تعيش الأسود إلا في البراري. كما لا تنمو

النقود إلا في الحركة الدووية. تتغذى على بعضها، وعبرها تنمو غابات الإسمنت،

والملاعب، ويواصل صيادو الأسماك حصد الميداليات الشفافة. ذلك أنهم أولاد

القرون الماضية كمزارعي الأرز في فيتنام ومن يرتدون مريلة الإعدام الحمراء ليقفوا

تحت شرفات الجميلات النائمات دوماً. ويرى الولد الأشياء كما هي عليه. ويبحث

عن الكلب بنظره فقط. "أيننا كان الخائن؟". إن الحياة لا تعود إلى الخلف. ويدرك

القرد ذلك فيسقط من الشجرة ويبدأ في جرسانه على الطين وهو يضحك.

"نحن صبية الضباب.. نحن صبية الضباب"

أنتم صبية الضباب؟!!

"سرقت الأسماك الطائرة الهاتف الوحيد في الغابة وهربت"

وتتموج أشباحهم السحابية بين الأشجار حين يعبر بدوي صحراءهم وهو يقود جملة

حتى لا يشعر الجمل بالسأم من وجوه التجار الصارمة. "فلتصنع لي بدل الأقدام

عجلات مطاطية، وبدل الرقبة مقوداً وعلق على السنام علامة تجارية كي تواكب

العصر". فيكتئب البدوي عندما ينهار عالمه ويشعر بأنه غراب. وعندئذ ترتفع زوابع

الرمال القمعية إلى السماء، لتطلب النجدة من الملكوت. "يا صبية الضباب، إنكم

تجلبون الخراب دائماً". ويغضب الولد من حديث القرد فيخرق أنفه ويدخل في

الثقب خشبة من عشوائيات شجرة المستكة. "لكي تتعلم الكلام" يقول الولد ثم يهرول خلف صبية الضباب حاملاً رضيعه بين ذراعيه.

الكلاب لا تخون، ولكنه الكلب الوحيد الذي يفكر باستمرار في قتل صاحبه.
ألن تأكلاً شيئاً؟.. ومن هذا الطفل؟ تقول صاحبة البنسيون ذات الأثداء الكبيرة.
- ابني..

تمد يدها وتخلع أثداءها.

- ألن تأكلاً شيئاً؟ ومن هذا الطفل؟

- قلت لك إنه ابني..

تعود وتجمع الأثداء المطاطية وتحشرها تحت رداءها. وتخرج عصفورة من ساعة الحائط ولكنها لا تزقزق بل ترتد إلى الخلف بقوة، ويصدر عن ذلك صوت تكة صغيرة. ومن الركن يترنح رجل يرتدي بيجامة النوم المزركشة برسوم البطات الملونة وعلى رأسه قبعة من ذات القماش. يطوح قدمه اليسرى ويتمسك بالصندوق الذي تقف خلفه المرأة.

لا يوجد قمر في السماء، ولا تظهر النجوم من فوق البنسيون الذي بلا سقف.

- عليكما أن تأكلاً شيئاً.

وتبدو وقحة وغاضبة.

- ومن هذا الطفل؟

تهدر السماء بالرعد. فيخرج الولد والقرد من البنسيون والمرأة تلاحقهما ثم تقف أمام الباب.

- عليكما أن تأكلاً شيئاً.

ويسمعا تكة ارتداد عصفور الساعة الحائطية، لأن نواة الأرض توقفت عن الدوران. ولكن الغابات والجبال تتحرك في السطح ومعها السحب والروبوتات الحقودة. وتتمازج الاتجاهات، وتختلط الألوان عند الحانة، والثنائي الشرطي يقفان داخل الحانة ويدخل أحدهما يده ليحك خصية الآخر. وهو يؤكد بأنهما سيعيدان الطفل المخطوف إلى كاميليا ليكون عوضاً عن ابنتها التي انتحرت بعد أن أكلت يد الرضيع اليسرى. ويؤكد الثاني: "لقد تراجعت أسعار الأسهم في البورصة بعد كل هذه الحوادث المؤلمة في الغابة". فيتطاير البصاق من فم الكهل، ويطالب

بسن قانون لتجريم كراهية الخنازير. فيصفق نصف البرلمان، ويعترض النصف الثاني، ثم يجمعون على سن القانون. وتبدأ مراسم الاحتفال، وتمتلئ القنوات الفضائية بالخنازير الباكية. وتصبح كاميليا رمزاً للحرية. وتعلن الديدان تكوين مليشيا بعقيدة قتالية هي الدفاع عن النفس. وتبدأ محاولات دؤوبة لتحريك نواة الارض بتفجيرات نووية متواصلة فتسقط لافتة الحانة الخشبية. لا شيء في هذه العبثية يثير الضحك. لأن وحدة الوجود تطيع ألوانها على كل حاويات الشحن فوق السفن الضخمة. إنه عالم واسع حتى لو ظل القرد يجر لسانه طوال الممشى. ولا زالت الأرض تطبع نفسها على حافة مجد مهزوم. لا زال للحب مكاناً أساسياً في قلب الحروب. يعبر الولد الممشى، وتتنفس الأرض صباحاً لا يكدره الغدر، فتنطوي صفحات قديمة بشكل مؤقت. واللثة التي لا تحمل أسناناً تضحك بأمل واسع. فينظر الولد إلى الأفق ويفكر في إيجاد ممشى جديد للرضيع. ممشى لا يمر بالغابات الموحشة كعمشاه، بل بالمروج. ويقول القرد: بدأت تكبر.

تخفف الشمس سطوتها وتسمح للغيمات القليلة أن تمشي فوق رؤسهم.

لا ينكسر حلم الإنسان أبداً.. حتى وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة. فيلتفت للقرد ويقول:

- لذلك لا تتحدث الحيوانات كثيراً أيها القرد لأنها لا تحلم.. هل فهمت.

يقفز القرد فوق الأشجار ويرفع سبابته:

- فلتسقط كل الممالك والامبراطوريات.. بيزنطة وفارس والأموية والعباسية والعثمانية وليختنشتاين.

فيضحك الرضيع.

وتحتفل الغابة بالرضيع. تتنازل القرادة عن كرسيها ليجلس الرضيع، وترش الأفيال الماء فوقه، وترفرف اليعاسيب بسرعتها المجنونة. وتمتنع الحيات عن التهام الضفادع، وتمد الأشجار الشوكية فروعها بأمان للعصافير والطيور. فليس للموت عنوان.

ويقف الشرطيان على مفترق طرق مسفلتة ويمسحان عرقهما وهما يفتشان بأعينهما عن اللص الغامض.

"إن الأخلاق نتاج من يرفضون الاقتناع بالحقيقة".

"بإسم القانون.. أرفض ذلك".

ويرفع الوسطى لأعلى حيث تصبح السماء صافية أكثر مما يجب. فيقبلان بعضهما بعشق والأحذية العسكرية الممزقة تغطس في الطين وتجر معها الطحالب الخضراء. وتغني الأنفاس الحارة. الخوذات الحديدية المثقوبة تحتجز الدم، وترتعش الأصابع ذات الخواتم الفضية. والشباب في المراقص الليلية المتألثة يحاولون تجنب فهم الحياة. تهبط روح الفتاة من السماء. "مجرد خيوط من الحمض النووي نحن". يقول لها الرضيع. فتبكي وهي تضحك.

"لا تخض مغامرة الحب أبداً"

ثم تمسح على شعيراته القليلة برفق، تقبله وتعود إلى السماء لأول وآخر مرة. وتحقق سلحفاة معمرة في الأفق.

كل الأيدولوجيات تتبدد عندما ينبض قلب أحمر في ساحات الحب الخالية.. ترهن الشتاءات معاطف الربيع والأكواب الساخنة على طاولة المقاهي في أطراف المحطات البعيدة.

"سأبقى وحيداً حتى الموت.. في انتظارك إلى الأبد..". يكتب ذلك دون أن يفكر.

ما هي الحياة؟ إنها إحساس فقط.

ويسير الولد والقرد بمرح حتى الركن الجنوبي الغربي من الغابة وهما يتبعان أغنية الولد الذي لا يكذب أبداً. والتي تغنيها جاكلي صانعة المعكرونة. "الولد الذي لا يكذب أبداً.. يعاني من كذب الآخرين". وتمنحهما طبقاً واحداً من المعكرونة ذات الصلصة الحارة. كانت تلصق أقماعاً على فوهة المفرمة، وتقول: تخرجك فوهة المفرمة في شكل دودة، أو حمار، أو قرد، أو أسد، أو أرنب.. فلا تقاوم لأنك لست من يصنع القمّع.

-ومتى أصنع القمّع؟

يسألها القرد فتقول:

-لن تصنعه أبداً. يجب أن تودع هذه الأفكار الشريرة..

وتضحك فتتساقط من فمها الحراب المسننة. إذ أنه لا شر ولا خير في هذه الحياة. وكتب جون ميلتون ملحمة الشياطين الصغيرة ذات الكروش الضخمة والملساء ككروش الخريتيت. ومن كان مقتنعاً بذلك أكثر من الخيام الرابض في تبصراته الباكية. ها هي حربة مسننة ذات حراشف، وأخرى ملساء، وثالثة مدببة، ورابعة

مطروقة كخوذة جندي روماني صرعه أسلاف الخيام. وتحشر جاكلي لقمة في فم القرد فيمد لها مؤخرته. "هذا هو المكان الصحيح". هكذا هي يا موليير. هكذا هي. فيتصعب الولد عرقاً ويشرع في الهرب. لقد توقف عن التدخين لأنه يضر بالرضيع. وفي كون موازٍ لم يكن هناك من رضيع، بل مصانع للسجائر، تحدد مصير القطب المتجمد ومصير قُبلة في الهواء. لا تكتئب. وينقُض الكلب فيقبض بفكيه على عنق القرد ويخنقه حتى تسيل الدماء السوداء السامة، ويموت ولسانه يتدلى من جانب فمه الأيسر كزوج عشيقة المدير العام تماماً. يسحب الكلب الجثة ويدفنها خلف شجرة وهو يتمم بتعاويد حزينه. ويظل الولد متجمداً. "سأسير معك". تذكر دائماً إنه ممشى الولد والكلب.. هكذا أسميته أنت لا أنا". ينظر الولد إلى الرضيع ثم إلى الكلب ثم يومئ برأسه، فيجر الكلب لسانه على الأرض، ويسيران في الممشى المجهول. "ستحدث العدالة في العالم عندما يشنق جميع العمال والفقراء والبؤساء أنفسهم.. هكذا هو الخوف المتجمد. يمضغ الكلب الكلام وهما يشقان طريقهما بين قيعان الجثث الصارخة. والباحثون عن وظائف شاغرة في الطواير الخامسة يفتحون أفواههم المتعفنة لكي تنظفهم الأوهام. هؤلاء يتكدسون في مشارج الزهور، ويخلع الولد قبعته احتراماً لتاريخ سيُكتب في المستقبل. يمسح شعره الفلّفلّي بأسى من العرق. وتضعف خطواته من الألم.

"اين صبيان الضباب؟"

"وأنا كذلك مشتاق لهم"

وينحدران في وادي الضباب ذاته. "ستتحولان إلى صببية الضباب" ويفتح الكلب عينيه على اتساعهما "وأنا كذلك؟". من يحكي قصة ليستأنس ليلاً يحضن النهار. والموتى السابقون صورهم تضحك باستمرار. لا يتخيلهم وهم يبكون. لذلك ترتعد السماء وتحبلهم في المنامات أحلاماً. وتظهر قبيلة الأقزام وهي ترقص حول خنزير وحشي بساق مقطوعة وخطم محاصر بنايين شقيين. "هلموا.. هلموا" وتبدأ ألعاب الحاوي، فينفخ النار من أعلاه ثم أسفله.. فيضحك أبناء الغابة.. ويحك الأسد أنفه بالتراب حتى لا يقهقه. "هلموا هلموا فالحياة حلوة" ويستمتع الولد والكلب في وادي الضباب. ومن حولهم كراسات مسطرة بمربعات صغيرة، لكي تُكتب فيها الأرقام بأيدي ضحايا مستقبلين حين يتبعثر السديم الأصفر المشع حول بقعة منخفضة هي مسرح يختصر الوجود.. "لقد خسر الإنسان براءته يوم عرف المجاز". يبكي الكلب أثناء جره للسانه على أشواك الأرض ويتجهم وجه الولد وهو يحلق ذقنه وذقن الرضيع.

"قتلت القرد" فيكتفي الكلب برفع لسانه والأشياء تأكل ذاتها، وتغتصب ذاتها، لأنها لا تشكل كينونتها المحضة بإرادتها. هكذا هي القرارات السمجة عبر الزمان. "إنه الجنون بعينه". يفتح الرضيع فمه ليلتلع الظلام ثم يمد يده فينهب السماء بقسوة بريئة. لا حب إلا هنا في هذه الزاوية المنكوبة بالجائحات. ويرفع الجميع رؤوسهم نحو السماء ثم يخفضونها بقنوط صارم. تساقطت الميتافيزيقا العجوز ونمت أشجار من النعاس الغادر. فلننتكأ قليلاً لكي نكون نحن. يقول الكلب "أولا نكون". يريان لعاب الضباع وقفزاتها الرشيقة كالأجراس النحاسية المعلقة في الكاتدرائيات القديمة. "من سيلتهم من؟ في هذه الحياة". يرتدي الكلب جوارب الشتاء ويلعق الأرض بحذر.

(3)

"لقد انهزمت مملكة القراد وحطت في جسدك".

"و أنت امتلاً شعرك بالشيب".

"أدركت ذلك حين رأيت امرأة في الزحام".

وتمتلئ الأسواق بالقنابل، وينحسر الماء عن الرمل مخلفاً أصداً مستوحشة فتلمع لتقاوم احتضاراً لا نهائياً إلى أن يغمرها ماء البحر من جديد. ويضحى الممشى متعباً أكثر من ذي قبل. يخلع الكلب جوارب الشتاء ويرتديها الولد وهو يتأوه ويراقب خط أثر لسان الكلب الطويل.

"مضينا بعيداً"

"ربما.. لا أدري"

"هل نعود؟"

"هل نتوقف؟"

"لا.. لا سبيل إلى الوقوف"

"الأرض تسير تحتهما، وتقفز الحقائق من السير، الكبيرة والصغيرة، الحمراء والكاروهات، والبلاستيكية والقماشية.. وتراقبها العيون التي تفكر في أشياء أخرى كثيرة، كحب التملك، و افخاذ العروس الحمراء، وكسي القردة، ومكرونة مقهقة، ورمل أحمر، ومشط بلاستيكي أسود، وصراع الفيروسات مع كريات الدم البيضاء، وحكم بالإعدام، ومخاوف كثيرة أخرى لا حصر لها. تزحف الظلال على السيراميك، وتشع انعكاسات المصابيح البيضاء عليه كقوى الملائكة. وتطؤها أحذية رجالية سوداء وكعب عالٍ أحمر أنثوي. وتعلن عشرات الرحلات موعدها وتخفي ملايين وجهها المصبوغ بأصباغ التجميل المنكسرة على ألواح حديد النوافذ رخيصة الثمن، والأعشاب التي تُلقى بعد اقتلاعها بلا هدف تحت زوايا الجدران الحجرية المتملقة لانحدارات الجروف الصخرية فترقص معها؛ تدور وتحنى وترتفع وهي تلف خصرها بذراعين صلدتين. "كانت كما يرى المرء في المنام".

"وعبرت؟"

"عبرت واختفت وأدركتُ بأنني كبرت".

"لم تعد تحب صبغة الضباب؟"

"بل لا زلت أحبهم.. ولكن"

ينفض الكلب جسده فتتطاير القرادات المنتفخة. وتغوص كل واحدة في كرة من الثلج الجاف.

"ما كان اسمك؟"

"كان اسمي روكو"

"كان اسمك روكو.. هذا جيد"

"والآن؟"

"لا أتذكر.. كانت هناك معركة في الغابة.. معركة كبيرة حين فقدت الاسم"

"هل مات الكثير؟"

"لقد قدم كل واحد منهم سيرته الذاتية"

وينظر إلى الرضيع.

"لقد ألفوا فيها الكثير"

وضحك..

"لم يكن فيها الكثير؟"

"تقريباً.. كانت خالية تماماً كقلب أم مات رضيعبها"

"أو نظرة رضيعب ماتت أمه"

وبدا له أن شباكاً من الشوك بدأت تنمو في قلبه. فأدخل سبابته في فم الكلب المنكسر وأشاح عن هذا العجوز الثرثار الذي يجلس مرتدياً جلباباً متسخاً وممزقاً فوق فرع شجرة قوي ويلعب بإيره ليلفت انتباه الخنازير الوحشية التي أخذت تحديق فيه وتلحق لسانها بعيون ميتة.

"وقد بدا الحب لي رفاهية طويلة حياتي". ويغوص في جوارب الشتاء، سائراً على يديه. فيقلده الكلب. "لا يوجد شيء ممنوع في الغابة". ويتلفت باحثاً عن شيء. "فلا يوجد شيء". ويستمران في المشي بأيديهما. إننا في حاجة إلى قفازات من جلد السلحفاة العجوز. وتتسمر أنظارهما نحو الأمام. وتلحظ السلحفاة ذلك من بعيد فيحدثها قلبها القديم عن الاجتياح. تتحطم القواعد، وتتأسس الأخلاق على الضعف وانعدام الحاجة. حينها يتلألأ الدم فوق سطح القمر. وينحاز الساحر إلى مجتمعه دوماً لأن الأرواح ليست أنانية. تسرب بؤس في خلايا الدرقة المرقطة. وكان حزناً مؤقتاً لكنه عميق يطوف في ممشي الغابة. "الأشياء تُصنع ولا توجد.. أما ما يوجد فليست الأشياء بل الوجود نفسه" ويلعب العجوز بإيره وتتقدم نحوه الخنازير الوحشية بحذر. "فلتتعلمن مني يا حلوات". ويبتلع الضرس الأخير في فكه فتخنخن الخنازير الوحشية وتطوح رأسها وتتقدم خطوتين نحوه. إن كل شيء هنا عسلي اللون، حتى الضباب والقمر والأشجار وطحالب الماء والولد والكلب والديدان والقراد، كل شيء منهمر كالمطر بحيث لا يصلح عده. ترتقي المأساة إلى السماء وقيعان الأرض المجدبة، وتبكي الثعابين بلا صوت تحت ظلال الأبنوس فتنمو لها أصابع خدج لدنة ونحيبهم صفير واهن. "ما تاريخ اليوم؟" ينزع الكلب القلم من وراء أذنه بيمينه ويفرد الكواغد بيسراه. "وما هو اليوم؟". ومتى كان ذلك حقيقة؟ يلقي بما يحمله وي طرح رأسه لينام.

"ماذا يستفيد الانسان من الحياة إن عاشها؟"

وخرطت الإجابة دماغه كثقب أسود.

"لا تكن فيلسوفاً.. فهذا غباء"

ويلعب الولد بالحجارة، يقذفها فوق بعضها البعض.

"إن أزمة الإنسان أكبر من أن يفكر فيها كلب".

يضحك الكلب ويشرع في لحس الأرض.

وينظر الولد للنور في السماء. ويتمنى لو ينتهي هذا الممشى. فيتشاءب الكلب ليشعره بالملل من حديثه.

إنه ممشى بلا نهاية ولكنه مكرر، كإعلانات الحروب، والأوضاع الجنسية. والحديث عن التحضر، ومعايير العصر الرومانسي.

"روكو لا يموت"

"كان اسمي روكو منذ عهد طويل"

والآن؟

لقد نسيت. إن كل الأشياء تتساوى عندما تخدم العيب. تكون الصدفة هي التي تجعلك تفتح عينيك لتجد نفسك إلهاً أو دودة، وهكذا فهما متساويان.

"روكو.. انقذني يا روكو"

ويشعر الكلب بأنفاسه تنقطع. لحيته طالت وبني القراد فيها مستعمرة ضخمة. أكل العشب وتقياً وتبرز ولكن دون جدوى. فقد حطت عليه الشيوخوخة المبكرة.

"ابتلعُ أولادي من أجلك يا روكو"

"أخطأت"

تتقلص معدته فيئن، وتتسرب مرارة إلى حلقه. بعد قليل كانت جثته تنتفخ ولسانه يتدلى من جانب فمه الايسر كالأخرين. أما عيناه فكانتا رماديتين.

بكي روكو وهو جالس فوق تلٍ رملي على جانب الممشى والرضيع في حجره. ولكن عفونة الجثة كانت أكبر مما يمكن تحمله فغادر بصمت.

كان الممشى سابحاً في ضوء الشمس. ورأى روكو أذنين طويلتين. ثم قفز أرنب بري وقال:

- هل تريد رقيقاً؟

- هل تستطيع لحس الأرض؟

- لساني قصير ولكنني سأحاول.

(4)

في عود أبادي، وكون مواز، تبدأ القصص من جديد. تبدأ بحرب عظيمة.. كل شيء ينعكس، بلا رومانسية أبداً. يؤسس أفلاطون لديستوبيا الموت. وتحكم البروليتاريا في جمهوريته. ويستيقظ الألم في جيوب المساء المبعثرة على أشباح الصخور السوداء. ينعكس كل شيء، ينهض الكلب من موته القديم، وكذلك الولد، على أعتاب مؤامرة جديدة محفوفة بجهل المسببات، بجهل الأصالة، الرسام يتضائل وتنمحي اللوحات لوناً لونا، ثم تعود الورقة إلى لحائها الشجري. وينعكس بدوره الممشى الذي بلا بداية ولا نهاية. لذلك يقول الولد وهو يتقياً الموزة بقشرها:

- صحيح أنني بعد أن ذقت طعم وجودي فضلت عليه العدم.. لكن ماذا لولم أخرج من العدم إلى الوجود؟ هل كان بإمكانني أن أعرف قيمة العدم وثرائه باللاشيء؟

"سؤال ساذج" يجر الكلب لسانه ثم يتوقف فينبج نبحتين وينظر بطرفي عينيه الجزعتين دائماً إلى صاحبه قبل أن يطأطئ رأسه مرة أخرى ليجر لسانه على الأرض وهما يسيران بظهرهما إلى الخلف. وتتقلص الأشجار. تقفز جثة القرد، وتنمو زهرة البنت، ويختفي الرضيع. فيحملك الولد في كفيه بخوف.

تتحرك الشمس إلى الخلف، وترتفع الأمطار من الأرض إلى السماء.

ينظر صاحب العمل إلى العامل شزراً. وينكسر قلب العامل. الأموال تعود لمن سرقوها. لقد أخذها أصحابها، وعادت لمن سرقوها.. لا استرداد، العالم مخيف، أشباح صبية الضباب تبكي مختبئة خلف أجمة، وهناك تاريخ يدون يبدأ من لحظة الاستيقاظ من الموت، والاتجاه إلى الموت نفسه. "الأشياء هي نفسها مهما عكسناها" ويطير الولد فوق الأشجار. "سنحصد المطر". ويتبعه الكلب، ليبدأ في لحس السحاب. "انخفض قليلاً أيها الكلب المجرم". ثم

يسقطان. القائد يطلق رصاصته على الأسير بسرعة ويستولى على علبة سجائره ثم يدخنها بهم. فتنهض أشباح الجند، وتحلق حوله. إنها النهاية، فيتقيأ الخمر كله دفعة واحدة. وتهوي عصاة رقيقة على الطبل. يحرك الشاب فخذه متبعاً الإيقاع. إن الموسيقى أزلية لكنها لم تكن أسطورة مقدسة البتة، كانت متواثمة مع الواقع، وجزءاً منه. ترفع الفتاة تنورتها، وتُخرج لآلئ من بين فخذيها وضابطي شرطة، يخرجان دائخين ومترنحين "رائحة زكية". الغربية العارمة تدفن نفسها تحت تراب الممشى. وكل الكون الموازي ينتفض فتتطاير نقرات الجيتار حوله. "كُلني.. كُلني.. "لا أستطيع أن أأكلك".. يصبح لسان الكلب مُجرّحاً. فيرفع رأسه وينتحب. "لا تتأنسن مرة أخرى".. "إنها معضلة.. معضلة حقاً". الكتب الجديدة تحترق.. ورائحة الألوان تنتشر في الجو وتخرق خنادق النمل المجنح فيختنق جانب كبير منه وتهرب قلة إلى الأسفل. وتدور القلوب داخل الخلاط فيضحك العجوز ذو اللثة الخالية من الأسنان. "سائل من دم القلب". ليس بديلاً عن الأوميجا، ليس بديلاً عن شيء جيد. وتعبث الرائحة الذفيرة بابتسامة العجوز. تجثوا الخنازير على مقدماتها وتعطي العجوز مؤخراتها فيضحك بسعادة ويفرك ذكره. ومن الزقاق الشرقي، تخلع فتاة حذاءها طويل العنق لتبدأ عملاً عابراً بثمن بخس بعد ليلة طويلة عامرة بالركود، فيتوقف الولد والكلب ويحدقان في المشهد. "هل هذه حياة أم موت؟".. "بحسب" يهمس الكلب. للحقيقة وجوه عديدة كما يقول هوجو، "حتى الألم؟" يقول الكلب "لست متأكداً". ويبدو الكون الموازي مهووساً بالانعكاس محاولاً إلباس العيب نظاماً معنوياً.

وكانت الأرض خصبة بالدم، بالرياحين الثلجية، وبوافر الانعتاق في الرقصات الإفريقية لأشباه العراة وهم يقلدون أصوات حيواناتهم بمهارة فقيرة ويحرقون الشوك ليستنشقوا دخانه. كانت الأواني الفخارية تنقع في الرمال، لتقطر نبيذ السمسم. ولم يكونوا يعرفون الكتابة لأنهم لم يكونوا يعرفون الحزن بعد. هذا كان قبل عصر الحكماء الخمسة، أو الألهة الخمسة الذين جابوا الكرة الأرضية. ومن هنا تشكل الممشى الذي لم يعد مقدساً، إذ عبره قراصنة الرمال وعاهرات الطيور، والجنود الأغبياء، والمجانين، وصانعة المعكرونة، وماسحو الأحذية، والعازفون والطبالون وزمرة القراد الملكية، والعروسان المنتحران، ودببة القطب المتجمد، وضارعات اسخيلوس، وحجيج المعابد والأضرحة المباركة. وفي هذا الممشى -كما يحكي العجوز للولد والكلب- مشى الشيطان نفسه وخلفه سار أولاده العشرة آلاف، وزوج في نفس هذا الممشى ابنته الوحيدة لعموتارح ولفاوست بعد أن مات عموتارح ومئات آلاف آخرين، وتأسس محفله العالمي على من قطعوا أيديهم دليل الإيمان ونكران الذات. والذين

أمروا أن يمشوا ليدونوا تاريخاً مزيفاً للعالم. "لست وحدكما من مشيتما في هذا الممشى" وتفوح من تحت جلبابه الممزق رائحة عفنة، ثم يخرج منها خنزير صغير تضرع خداه بحمرة الخجل وعبرهم مسرعاً فتجهم وجه العجوز وطردهما.

وعلى دقائق الطبول تقافزا وهما يسيران، وجلجل الولد بصرخة منتعشة، وتشاءبت ديدان الطين. ثم امتلأت مئانة الأحجار بشعلات صغيرة. فأخذ الكلب يحدق في صورة وجه الولد وفي وجه الولد بحيرة. "هل رأيت وجهك من قبل؟".. تسلق الولد شجرة الجواافة وقطف واحدة وغمس فيها وسطاه وشم الرائحة فأبعد وجهه عنها. "أوف.. لا.. ولا أريد". "ألا تشعر بالفضول؟" أخذ يمخر الثمرة ويفلطحها ليرى الدود. الظمأ مندس هناك.. مندس في كومة من المناخات المضطربة. وشاحنة بيضاء متهالكة تحمل الأثاث الفقير عليها. "لوعاد لن نجدنا". ولكنه لم يفكر حتى في العودة. كان الحب مؤلماً بالنسبة لمن لم يعتد عليه من قبل. إنها فاجعة وإيقاعات سريعة ترهق الأعصاب الذهبية. تنحني الشاحنة وتغوص عجالاتها في ربيع من الأمل كالمعتاد. "إن الحياة حشرات متجددة.. هذا كل شيء".." إنه لا يكرهك.. أبداً لم يكرهك.. حتى قبل أن تموت.. الأشياء تتضاءل في الحقيقة عبر الزمن ولا تكبر".." وتراقب عبر النافذة ممشى الرمال الحمراء بلون الشفق. يشمر الكلب قميصه من الأسفل ويرفع قدمه ليتبول ولكنه يتوقف ويحدق في السماء ثم يتلفت حوله ولم تخرج قطرة واحدة منه. "لقد أصبتُ بالبروستاتا".." ومهبط الولد من الشجرة ويسير بقفزاته المرحة في الممشى، فيتألم الكلب ويعصر لسانه على الأرض سائراً خلفه.

والغرفة مظلمة، بنافاذة واحدة مغلقة وزجاجها المبخر بالتراب يسمح بضوء أصفر مكتوم يتلصص على الداخل. هناك رائحة خل. خل محض تنبعث من تحت مفرش مترب فوق طاولة خشبية دائرية تتسمر كصنم في المنتصف، فوق المفرش تفاحة جافة ومقضومة قضمة صغيرة، تلتصق بها خيوط عنكبوت ثم تسافر طائرة بزاوية خمس وأربعين درجة حتى أقصى الركن العلوي للسقف. ويبدو هيكل لسيررما.. سيرر صغير المساحة وقصير إذ لا يسع إلا فتاة في السادسة عشر أو خنزيراً مدجناً. الأرض مغطاة بمشمع بلاستيكي ممسوح بأتربة دقيقة الذرات. وعلى الممشى أن يلتف حولها ليوصل امتداداته السخيفة المملة كقصص بلزالك وهو يجرع من زجاجته ويضرب نقداً ذهبياً على طاولة القمار فتتبدد داخله القيم، وينحاز تارة للحب وتارة للانتقام من الذات. ونقطة الضوء الحمراء تتبدل لخضراء ثم تتبدل الخضراء لحمراء ثم تهجع الأشجار متينة الخشب متحدية مفترسات الغابة. غير أن صدى

الأغنيات يتأرجح في السماء، ويلون رتابة المناخ الصيفي. وحين يكسر الولد باب الغرفة تنطلق صرخة الفتاة العارمة فيتراجع الولد ومهرول ويتبعه الكلب الذي يفشل في تثبيت لسانه على الأرض. "لذلك أكره البيوت" .. وتظل صرخات الفتاة تنطلق بألم شديد. "هل رأيت شيئاً؟"، "ليس بالضرورة أن ترى لتؤمن". يتوقف الكلب ويضحك ويتبعه الولد في الضحك وهو يفرش كفيه على بطنه ويحني ظهره إلى الخلف باغتباط. يحلب الكلب مئانته ليخرج البول المحتقن أثناء ضحكه. ويقترح الولد إدخال قشة في ذكره لتسلك له المجاري فيخاف الكلب وتتسع عيناه ثم يضع لسانه على الأرض ليغير الموضوع.

"إننا لا ننام أبداً.. ألا ترى الهلال الأزرق المشع يكاد يلامس طرفه الحاد أنفي". يمدد الكلب جسده على الأرض ويغفو أو يحاول أن يغفو رغم صرخات الفتاة التي تأتي من بعيد.. "علينا أن نغلق الباب على روحها الناسكة". ولا تتوقف آلام الأشياء وأقلام الرصاص المنكسرة على شفة قرمزية ناعمة. هناك أسئلة، دائماً هناك أسئلة، أسئلة بائسة عبثاً تحاول ملء الفراغات والتجاويف السوداء في حيطان الوجود العجائبية. ربما يهرق عليها كافكا وغيرهم بعضاً من بصاقهم المحفوظ في براميل التعتيق اللغوية. غير أن هذا لن يكفي أبداً. إن الممشى ينحرف دائماً، ويغتسل برائحة رطوبة القراميد المنهارة، والتناجي بين العروسين المنتحرين. كل الأشياء هي كما هي، كانت كذلك، بل حتى عندما تكون فإنها تكون لأنها هكذا يجب أن تكون. ولذلك يصرخ المدان وحبل المشنقة يُلف حول رقبته. فمن يقتل الفتاة يجب أن يُقتل. وهكذا يموت اثنان بدلاً عن واحد لأن العدالة هكذا تقول مرددة أقوال كانط المثالية. لم يقتلها السكين بل الحب المغدور. فسيقانها كانت رقيقة جداً كساق اليعسوب، ونهدها متكور كليمونة مقرفة. أشياء لا تشبه إفريقيا كثيراً. ولا تشبه أي شيء في الواقع. يمتص التكرار العمر وحبكات المسرحيات الأثينية. كانت غلطة كبرى، ويضرب المدان جبهته على جدران الغرفة وهو يبكي وجسد الفتاة مُسجى على السرير الخشبي. "لن يصدقوا أنها انتحرت" ولكن أي حتمية مغفلة تلك التي تفتقر إلى كل منطق الدنيا. ويحاول الولد تثبيت الباب على الجدران الواهنة دون جدوى فيركله غاضباً ثم يتركه ويعود إلى الممشى متجاهلاً الصرخات المرعجة.

لم يكن ذلك تحدياً، بل محاولة للتجاوز. إذ على الولد والكلب أن يقفزا دوماً فوق المكعبات الحادة. ولا يمكن التغلب عليها إلا باعتبارها لعبة، وليس تحدياً. وصمّتُ النهار يرفرف على القباب والصروح والأضرحة وشواهد القبور، فعلى الضفة الشرقية تنساب الستائر المصنوعة من الكتان المتين وتنغمس في نهر الرمل، تبتل به وتعود لتزكم رائحة الند الهندي

الأنوف. يجلجل جرس المعبد، ويصطف الغلمان متمائلي الرداء. ويبدأ طابور التعذيب. لأن الآباء يعلقون أحلام النجاح على مؤسسات محددة مضحين بالسلام النفسي. فتدور مروحة السقف ببطء، وتنساب قطرة عرق من وجه الرجل الذي يسحق طفلاً تحت بطنه. ويأكل الفزع الليل، حتى لا تتجانس ثمار الرمان مع بيئتها، تنعزل وتحتاط لنفسها بالبكاء المرير. وتحرك الخنازير شفاهها القذرة. "سوف ترى أيها الولد معنى الحياة الحقيقي". ويختبئ الكلب وراء ظهر صاحبه ولسانه ينجر في الأرض بوهن. وتدخل أفواج من القردة معابدها المنحوتة في الهواء. ولا فرق بين الحجر والعدم، فكل جوقات المسرحيات القديمة كانت تهرج من أجل الانغماس في معنى مختلق. وينفض الكلب رأسه ويفكر في الهجوم على شمع النحل. ثم يراقب بنهم. "إنك لا تفكر أبداً يا روكو" يصرخ ويبكي فيتجمد الولد.

"إنك لا تفكر في الآخرين أبداً يا روكو" .. يضحك الولد ويمتلئ صدر الكلب بالغضب والحزن. ولكن كل السحابات البيضاء تجمع ذراتها من الأرض، وتحلق تحت أجنحة البط البري. فهناك زهرات منقوشة على الدولاب الأبيض، الذكرى القاسية، وقميص تركوازي منشور فوق كرسي أبيض أيضاً. وطاولة كي، وسلّة قاذورات تنفتح بدوسة قدم. وحقيبة تتشتت داخلها وفوقها ملابس. وحاسب آلي، وعلب سجائر وأعقاب سجائر، وقلم حبر لا يعمل، وقداحة صفراء، وحزام ملقى فوق بنطلون على السرير الأبيض، وتحت ملابس أخرى، ونافذة تطلّ على كتلة أسمنت خرساء، ومروحة ومصباح نيون، ومصباحان أعلى السقف على جانبي المروحة، وهناك صندوق بأدراج لا يعرف أحد ما بداخلها، ولكن فوقه قبعة رياضية ونظارتان، وراوتر، وباب ضيق بقبعة طرية معصورة بين الباب وإطاره. وهناك نقوش لزهرة اللوتس في كل مكان وكأنها مقبرة فرعونية. كل هذه الأشياء لا تعني شيئاً له. فهو يلون سماءه بالموسيقى كما يردد دائماً، وبالتفكير في خطورة النمل المجنح خاصة في الخريف. وهناك كراسيات وأوراق أيضاً. وفي الخارج تمتد مساحات شاسعة من مكعبات الخشب المدفونة حتى ثلثها في التراب الساخن. ولا شيء داخل تلك المكعبات كرسائل أو رسالة فلسفية، إنها هكذا، شيء فوضوي كيفما اتفق لها أن توجد. ويقبض الكفان الشابان على مقود السيارة الرياضية، ويعلوا صوت موسيقى الروك في الداخل ويكتمه الزجاج السميك عن الخروج. وتتطاير الشرارات تحت الإطارات فتصرخ الفتاة مغتبطة ضاحكة وتنحني على صدر الشاب وتفرك له شعر صدره وتقبله. كل المجون يتطاير مع المعدن المسبوك بعناية مصانع الشركات العابرة للقارات. وتفرم الماكينة الضخمة كف رجل فيغى عليه ويُطرد من العمل. والقضاة يتهامسون ويتهامسون وهم متجهمون كالمعتاد. وفي حمّام المحكمة يجر الفتى الفتاة وينغمس معها في الجنس والتدخين.

ويشاهد ههما كبير القضاة من شاشة أمامه فيفتح سوستة بنطاله. وبأصابع مرنة ومحترفة، تتوزع أوراق الكوتشينة والنقود الخضراء. وتفور زجاجات الجعة. فتخمد أنفاس متعفنة في الأزقة مظفأة المصاييح. والمصاييح الزرقاء تنير الهايبرماركت الضخم والمول والكايزنو وطوايير السيارات التي تزحف أمام شبابيك أكشاك بيع الأطعمة السريعة، وروائح العطور الفرنسية تفوح من بين أئداء امرأة أربعينية وتهرب عبر النافذة وتخلق دوامة لركاب الطائرات والسفن الفضائية والعمال الهنود الذين يحملون العامل مفروم الكف إلى المستشفى. يلهث الكلب من فوق برج شاهق العلو، وترفرف ياقة قميصه بصفعات الرياح الباردة. وينظر الولد للأسفل حيث نقاط ضوء صغيرة تتحرك جيئة وذهاباً، وعطر اللافندر يطرد البعوض، وينظف أفخاذ اليعاسيب الليلية.

"لماذا مر الممشى من هنا؟".

ينظر الكلب إلى الولد الصامت الذي يتأمل الأفق المظلم.

"علينا أن نعبر هذه الأبراج حتى نصل إلى معسكرات السيكاذا الأفريقية" حيث تُلقى القرابين البشرية هناك".

ويموج الدخان في كل مكان والأصابع المزينة بالخواتم الفضية تقص السجائر وتطوف به في رحلات سريعة بين الفم والمنفضة. وتسقط خارج المدينة، المدينة المزهرة بالقسوة والاعتراب الأبدي. إنها خيار اللأ خيار. تصرخ الفتاة مغتبطة ضاحكة وتنحني على صدر الشاب وتفرك له شعر صدره وتقبله كما تفعل مع غيره. فينبثق من بين الظلمة جلاباب مزركش الحواف بترميزات لاهوتية، وينسدل شعر أبيض على الكتفين تاركاً مساحة صلدة ولامعة في المنتصف لتجرب حظها. يرفع السيد يده أمام وجهه ليصد ضربة ضوءٍ ما عن عينيه وتتراخي ذراع أنثوية ناعمة. يصرخ الكلب بخوف ويتسمر الولد في انحناءته "دعنا نغادر"، يفعلان ذلك بدون تردد. ولم يهدأ قلبيهما إلا حين لمحا مخروطيات السيكاذا من بعيد. "ما المعنى من كل شي؟"، "كل شي؟! كل شيء؟!"، وعصب الحياة ينساب من بين الجبال أبيضاً بخمر بلدي ودوران النرد حول نفسه ضاحكاً.. إنه يلعب النرد لأنه هو النرد نفسه. والعيون المغولية المخططة كالمحار لا تهتم. لا تهتم أبداً بصخب فقاعات الروك. بل بينابيع البحيرات المالحة وتجفيف السمك الدهني. بالطعم الحقيقي للأشياء.. وتتضخم كالورم لتبتلع الأيام بوحشية متعاطمة.

هناك أواليات كالجوع، تحالفات مرحلية تعطي أفضلية للحكايات الطويلة. ولذلك كانت الحصاة تمنح اتزاناً للصخور المترامية على بقاع الجذب. وهنا بالتحديد، يتخافت أثر الممشى رغم كثرة الطراق ويستحم الأفق بلهب الشفق، فينعكس كل الكون على الحصاة الملساء وليس وجه الولد فقط، فحتى الكلب يرى ذاته فيها وتظل الكينونة مندسة وراء لسانه الجاف وخلف عيني الولد الميتين. أرواح العظايا البالية تتبعثر في السماء بروائح الجمر والشعر المحترق ومشية النعام في البراري قرب الجواميس الوحشية. حيث يكون النوم أشد المهيدات خطراً للجميع. وإذ ينكسر الممشى يتنفسان الصعداء. وتنمو هياكل السمك والملح متراصدة فوق بعضها لتشكل جداراً سرياً للذين كانوا هنا من قبل انحسار التنورة عن جسد الأرض العاري. ويضطجع السلام والحرمان في مضجع واحد ليتقاسما صمت الكآبة. لكن، كل هذا ليس بشيء، فالمهم هو الأسرة، وينخس العجوز الخنزير ويدخله تحت جلبابه. "الفاميليا قبل كل شيء". العزوة، القوة، الكر والفر والهزيمة النكراء. الهزيمة المخجلة من شدة قذارتها ومرارة الفاجعة. حينئذٍ تختفي الحشرات لأنها لا تريد أن تسمع أكثر من ذلك. فتتكسر الأقلام ويوضع الكتاب بلا أجل لبعث جديد. فليس إلا منزلاً للخوف، للضرب اليومي، للسكر، والأم الخائنة. حيث تخفي الغابة كل البؤس متجملة بالوحشة وبموسيقى البلوز وانحسار الملح عن شواطئ البحر الرملية في غروب يعوي بالريح والبرد. إن القبعات مؤقتة، والأقمصة المزركشة بالورود الملونة هي كذلك مؤقتة. ولكن القرار بالفرار محسوم حتى لا يتحول إلى أغنية شعبية كمنزل الشمس المشرقة. ومن النقطة الأولى، حيث ينطبع أثر القدم الصغير على مفرش الخلاص، ترسم ملامح قصة جديدة، مكررة ولكنها أقل ملأاً من عدم قول شيء. إنها ليست حياة بل مسرد حكائي. تُتوهم فيه كل الشخصيات كاستحضار أرواح الأسلاف. فالسبابة يجب أن تلمس ذلك الفراغ وتسافر الموجات الدائرية مبتعدة عن مركزها. ترتعش وجنات الولد، ولكنه لا يبكي. كان ينظر إلى عينيها عبر النافذة ورأهما تحثانه على الفرار بصمت. كانت كجاموسة برية تحدق في صغيرها بين فكي المفترسات. وحتى في الجنازة وقفت بصمت وخشوع والآلات توقفت عن العمل، والتف العمال حول المقبرة وهم يبتسمون. "إنه لم يكرهك أبداً حتى قبل وفاتك وبعد وفاتك". ثم يهاوى جسدها النحيف وتسقط عينيها الفولاذية من محجرها. ومعها تبدأ الآلات الضخمة في العمل، تسقط الأوتاد الحديدية على بعضها وتقطع الكتل صفائح الحديد الأرق بأشكال مختلفة، ورود وتيجان ملكية، وزخارف عربية وكريات يتم تلوينها ببهيات الحديد المخصوصة. والحاسب الآلي يرصد الأرقام ويحولها إلى نقود وصراعات لا تُحتمل ولكنها تُحتمل في نهاية الأمر، يجب أن تُحتمل.

"أصبحت ضعيفاً" ثم يستدرك الكلب "كنت أقوى حين كنت طفلاً"، يحدق الولد في النبع ساهماً "دخلتك أمراض الكبر.. الحب.. أولها وأخطرها.. الطموح.. والمعاناة من الخيبات المستمرة.. وهكذا تتعلم الخوف الذي سيوقف رحلتنا في الممشى". رفع الولد رأسه متحدياً شيئاً ما "تعبت". "ليس أكثر من لساني" .. يلتفت إليه وينظر إلى عينيه بجفاء "لسانك لا يفكر" .. يعودان للنظر إلى الأفق "التفكير.. مرض إضافي" .. وينمو حائط المبكى حول القصور، والجدران العالية اللامعة والباردة.. تختفي المعطيات القديمة، وتتجلى الذكرى خلف ضوء الشموع.. ويربت السلام على الأفئدة في أدب التعفن.. حيث تبلى اللغة وتفقد طبقتها واحترازاتها.. ليس نتاجاً لمساواة عابرة بل عن وعي أكبر.. فهم أكبر يتلصص المساحات بين أشجار الغابات كلما مضى بها الوقت. نثار الخشب يفقد السيطرة على منقاره ويسقط جريحاً، تلتصق العناكب بشباكها وتختنق حتى الموت.. تبتلع الاسماك الماء وتنفق مرتفعة إلى السطح، وكل ما يتأنسن يخسر. "هل نواصل الممشى؟". يلقي الولد بحجر على سطح الماء بغير اكتراث "لا أعرف". "ماذا لو شنقت نفسي كما فعل العروسان؟" .. ولم تكن هناك فائدة ترجى من فرد الفطائر بلفها بصباح واحد، ولا فائدة من قفزات الهلوانات، ولا كل الحركات الإغوائية التي تقوم بها المومسات.. لذلك تهض من نومها وتحقق في السقف وفي جسدها العاري والبارد. وخلف المحيطات تهض مومس أخرى، ثم ثالثة فرابعة فخامسة وهكذا بلا نهاية.. "إنه يوم الثورة.. ثورة المومسات" اعتصمن بغرض رفع الأتعاب والتحرر من سطوة الممشى التاريخي. ويتبول الكلب بصعوبة دون أن يرفع قدمه، إذ لم تعد من فائدة ترجى من رفعها. يحاول بعدها عدة مرات أن يقفز فوق الشجرة، وهناك في الأعلى يصيح "من مدير الإدارة إلى رئيس القطاع بصورة إلى المدير التنفيذي ورئيس مجلس الإدارة.. تحية طيبة، الموضوع:..." يصمت ويفكر في الموضوع. يضحك الولد، ويترك النبع ليلحق بالكلب فوق الغصن "خدر الصباح... وبعض النعاس ملازم لجفنيك... هذا الشعور المفرط في النبل ... كيف يخسر العمال والموظفون وهم يهجرون ساعات ما بعد الاستيقاظ ... لماذا عليهم أن يعملوا؟"، ينبح الكلب لأول مرة في الكون الجديد؛ ويستنفر عضلاته الواهنة. ينتبه الولد ويرى القرد.. "مزيد من التكاليف" .. ثم يطير ويختفي بعيداً عن نظرهما. يصيح الكلب: "كلب" .. فيتأمله الولد ويقهقهه.. "أصبحت كوميدياً" .. في هذا الكون الموازي، تنعكس الأشياء لكن انعكاسها لا يمكن الشعور به، فالأشياء تظل كما هي عليه، فانعكاسها ليس سوى وعي مجرد وليس انعكاساً فيزيائياً رغم أنه كذلك. فلعبة الاحتمالات تفضي إلى حركة دائرية داخل حدود

الموجود بالقوة والفعل. والانبثاق لا يعني أي تحولات جوهرية لا حلولاً ولا تجسداً بل يسقط الثلج بغزارة في الربيع، وتجف الأزهار الحمراء ككشفاه لم تتذوق طعم القبلات من قبل. يمكنك في الواقع أن تضع كل الأشياء في أماكن متبادلة ولن يحدث ذلك أي قلق لدى زبائن الكون. ويتحرك جفن الولد الأيسر "ستلتقي بحبيب قديم" .. "إنني أفضل أن ألتقي بأعدائي عن الحبيب القديم".

ويمتد الممشى بعيداً، يعلو ويهبط، ينعطف يميناً تارة ويساراً تارة أخرى أو يمضي متعرجاً أو مستقيماً، مُعَبِّداً في بعض الأحيان مطروقاً فقط في أحيان كثيرة، خالياً موحشاً في أغلب الأوقات، محزناً كذلك وقد تنكسر فيه بعض قطرات الندى. ومن على جانبه كان صببية الضباب يوماً ما يرقصون، أما اليوم فإن هناك رؤوساً تنبت وتتبخر فجأة، رؤوس ضاحكة وباكية ومتقيئة ومشمنزة، بأعين أو بأنوف، أو بلا ملامح، أو مجرد أحرف للغة مجهولة، أشياء وأشياء، ألم وألم، حب، وخذلان، وتقارير سرية تُرفع ضد آخرين في المحال التجارية والجيران والمرافق الحكومية والوزارات، تعذيب وولادة، أشياء وأشياء وأشياء تتبار في نقطة كثافة صغيرة عابرة إلى عمق كينونة الولد والكلب، تُغذي الشرايين والعروق، فيكبران بالهم. تخفت حدة خطواتهما، يتكاسلان قليلاً ولسان الكلب تمزق حتى لم يبقَ منه إلا ثلثه. إن لم تكن سيداً فأنت عبد ولا خيار ثالث. إن لم تكن قوياً فأنت مُهان ومُذل لا محالة، ولا خيار ثالث، إن لم تملك إلا قلبك القوي فأنت مشاكس تافه كالقرد الذي يظل يتابعهما باستمرار في كل مكان. "لماذا لا تمشي معنا" وتجزع عيناه وهو ينظر للكلب الذي يشير بإيماءة من رأسه "ليس لدي مانع"، "ستأكلني؟!". "لن أكلك.. أصبحتُ عجوزاً في الوقت الذي أصبحت أنت فيه أكثر قوة وشباباً". لكن القرد يقفز من شجرة إلى أخرى ويختفي بكل حذر. كان مشتاقاً للمشي معهما بالفعل. "يمكنك أن تتخذ قراراتك بكل عقلانية ولكن النتائج ستكون غير عقلانية.. حينها تفقد فرصة المغامرة". ويدخلان إلى مقهى للكلاب عند انحراف الممشى إلى الغرب أو ربما الشرق، ويجدان العديد من الكلاب بأسيادها من البشر يجلسون على المقاعد قبالة بعضهم البعض والطاولات تتوسطهم وفوقها طعام للكلاب "طعام شهوي" .. "بكم الوجبة؟" يجيبه النادل: مجاناً.. لا شيء هنا بالنقود ما عدا تكاليف حجز الطاولة والمقاعد ودورة المياه والخطوات من الطاولة إلى أي مكان آخر داخل المقهى وكسر الصمت بالحديث إلى بعضكما أو مع النادل، ورفع اليدين لتناول الطعام، ومد الخطم داخل الطبق، وهناك تكاليف بسيطة لغسل الصحون الملوثة بلعاب الكلاب والبشر وتكاليف أخرى ولكن في حالة التقيؤ على الطبق فقط.. كل شيء مجاناً.. وهل هناك شيء في هذا العالم له ثمن سوى الحياة نفسها؟. وتتطاير

الأطباق وتخوض المرأة ذات العين الفولاذية معركة أخيرة، وتنتصر وتسقط، وتسقط جثة الرجل. تتأكل الأحلام القديمة يوماً بعد يوم، تصبح اللغة صعبة، تثقل الألسنة وتصرخ القلوب، وترحل اليعاسيب إلى وديان الموت والنار. وكتاب مقلوب، يُسقط أحرفه، على اللهب العالق في الحصى. والنارتظل هي النار، مقدسة دائماً لأنها رمز للحياة والموت والدمار والبناء وتدخين الأرجيلة، والقتل المتسلسل. وكازينوهات الكائنات اللزجة.

كل ما يمكنه أن يبكي تراه هناك في هذا العبث، وليكن عبثاً. عندها. وتحت قديمها، وبين فخذها، وشفقتها.. كل شيء محطم يزداد تحطماً، بما في ذلك السفن الحربية الخشبية، وقلوب المراهقين، والطبول، والمسارح، ومكبرات الصوت، والصواريخ الفرط صوتية، والأدمغة البشرية. "في هذا الكون لا توجد قرارات محسومة إنها مضطربة ومشكوك فيها دائماً، ولكنها محمية بالتعنت فقط" ويرفع العجوز قدميه فتخرج الخنازير وراء بعضها في طابور طويل، فيضحك مقهقهاً "هلموا فالممشى ليس ملكاً لأحد" ويرى أسنانه المتوهمة تسقط في حجره، "عمري طويل" وينظر بعينين بارقتين إلى نقطة مجهولة أمامه حين يسمع غناء جاكلي "هذا العالم مقسم إلى عبيد وأسياد؛ وعين الحكمة أن تعرف موقعك من ذلك.. هل أنت سيد أم عبد؟". "فلتذهبي أنتِ ومعكرونتك العفنة إلى الجحيم". يجب أن تحذف من القصص ساعات النوم والعمل والدخول إلى المرحاض والخروج منه، هذا وغيره مما يمليه تشذيبها من العبث وتبئيرها في زوايا استعباد النص، والمروق السمج من وإلى لعنة الحزن. تلك التجريبية التي تجعل كل من الولد والكلب لا يتضورون جوعاً للفناء، وصبية الضباب يستلقون في مقابر الضوء، وهم يبعثون شعورهم المضفرة بأشعة القمر الزرقاء. وتجعل كل شيء يستلقي معهم على فوهة التفاهة، ودقات الإيقاعات النابضة كل صباح بالأمل والبؤس والصحو. لقد نبتت عروق على ذراع الولد.. صارت نافرة ومنتشعبة. مع ذلك، يظل الولد ولداً هنا ولا ينغمس مع الرسامين المنكوبين بجائحة التعبير على الأسطح. كانت قرية الفن النموذجية والتي أنشئت بعد الحرب تعبيراً عن القنوط من الأفكار والمفاهيم القديمة المتعالية، كانت تلك القرية تقبع خلف التلال الخضراء، وكانت تحترق. فقد فشلت تجربة محاكاة عالم المثل بل أفضت لحرب أطول من المعتاد. "الإنسان هو الإنسان يا ولدي" فيحييانه ويغادران القرية بلا أمل في ارتداد الزمن إلى فلسفات الحياة المتفائلة. "إننا ننتحر ببطء" ويراقبهما بصمت فتلك اللقاءات المرحلية المؤقتة مهمة لإعادة تقييم موضع السيف من الندى.

نعم.. تثقل الخطوات يوماً بعد يوم حين يكتشفان أن العالم لا يحتمل الإنكشاف بقبح عُريه على الأدمغة المترهبة، حتى أن الموت لا يضحي العضلة الكبرى كما كان في السابق. ولذلك يظل الكلب يجر الثلث المتبقي من لسانه ولكن ليس كما كان في السابق، ويتوقف الولد عن قطف ثمار الجوافة كما كان في السابق، بل ينهار فجأة ليبيكي كأرملة فوق جثة زوجها الجندي. مع ذلك فإن ساحة الحرب مليئة بجثث أخرى وأرامل أخريات وربما في هذا فاجعة وعزاء في نفس الوقت، فالعبث ينزع -رويداً رويداً- إلى رسم أطره المستقرة مقاوماً انعدام المعنى؛ وهكذا يُمنح الولد والكلب فرصة خلق ماهيتهما ولو في الأذهان فقط. نعم فقد كان صبية الضباب يرفعون أذرعهم ويوسعون ما بين أقدامهم ويُرعشون أكفهم ويقفزون على ذلك الوضع يمينا ويسارا، ثم يدورون حول أنفسهم وتصيح جدران الهواء "كرانكا.. كرانكا أوب زيلي.. كرانكا أوب زيلي".. وتضحك الفتاة الصقلية ذات الشعر الأحمر وهي تمسك بطنها لتحجز انسياب دمائها الزرقاء من ثقب السُرة. وما يمكن أن يطلق عليه أيضاً الأحاسيس بلا تردد. كل ذلك انتهى الآن.. انتهى بلا عودة. وعلينا أن لا نفكر في النهايات أبداً.. علين أن نمضي في ذاكرة الممشى.. ممشى الولد والكلب؛ لنحصد ثمار الأفكار الشفافة.. أفكار الحب والكره والحياة والموت فينظر الولد إلى الأفق كما صار يفعل باستمرار.. كان يرى والده هناك في السماء ووالدته ذات العين الفولاذية مرتمية في أحضان الملائكة الآخرين وعيناها ترجو منه الرحيل. وفي تلك اللحظة تحديداً ينمو لسان الكلب من جديد.. فيواصلان المشي.

(تمت)

